🌕 سِفْرُ الأمهات الثلاث

رواية

رانية مرجية

2025

الإهداء

إلى الأرض التي لم تتوقّف عن الحلم،

إلى الأمهات اللواتي يَغفرن قبل أن يُطلَب منهن الغفران،

إلى الذين يرون بالنور الداخلي لا بالبصر،

وإلى من يبحث في قلبه عن بدايةٍ جديدة —

هذا السفر لكم، لأنكم استمرار الخلق.

🌿 المقدّمة

قبل أن يُكتَب التاريخ بالحروف، كانت الحكاية تُروى بالنور.

كانت الأرض قلبًا يتعلّم الخفقان، والنور فكرةً تبحث عن معنى، والإنسان سؤالًا يحاول أن يسمّي نفسه.

من رحم هذا الالتباس وُلدت ثلاث نساءٍ كونيّاتٍ حفظن توازن العالم:

لورا — أمّ النور، التي علّمت الوجود أن يرى،

نُهى — أمّ الذاكرة، التي علّمته أن يتذكّر،

مارا — أمّ الغفران، التي أنقذته من نفسه.

هذا السفر يحكي دورتهنّ: من ميلاد الضوء إلى صمت الأرض، ومن السقوط إلى القيامة، حتى تعود الحياة إلى معناها الأوّل — الرحمة.

ليست هذه رواية عن الماضي، بل عن كلّ لحظةٍ فينا تعيد الخلق من جديد.

لأننا ــــ كما تقول الأرض في نهايته ــــ

«لم نُخلَق لنعرف النهاية، بل لنتعلّم كيف نبدأ دون خوف».

الفصل الأول: ميلاد النور

قبل أن يُكتَب للزمن اسمٌ يتباهى به، كانت الأرضُ كرةً من صمتٍ يتيتم في العتمة. لا أنفاس ولا مسافات، لا اتجاه يعِدُ بالوصول، ولا ذاكرة تستدعي البداية. فقط نُقطةٌ ثقيلة من طينٍ خام، نائمةٌ على كتف العدم.

وفي لحظةٍ لا تُقاس، حدث ما لا يُسمّى: رجفةٌ خفيفة في قاع الصمت—كأن أحدًا قرّب أذنه من قلبٍ بعيد. ومن تلك الرجفة خرج خيطٌ رقيق، لا هو بنار ولا بظل، يمتدّ كوعدٍ لم يُنطق بعد. كان ذلك الخيط لورا، أمّ النور.

لم تولد لورا من شرارةٍ تُلسع، بل من شفقةٍ عميقة على العالم الذي لم يرَ نفسه قط. فتحت عينيها، فلم تجد ما يُرى، فابتكرت للرؤية معنى. قالت همسًا، والهمس يتعلّم اللغة على لسانها:

«لن أجعل الظلام عدوًّا؛ سأجعل منه مرآةً يعرف فيها النور نفسه.»

امتدّت لورا فوق الأرض امتدادَ نفسٍ طويل. حيث مرّت، ارتفعت جفون الصخور، وتثاءب الماء في باطن الكوكب كطفلٍ يُوقَظ بحنوّ. في الأطراف التي لا اسم لها، تجمّعت ذراتٌ خجولة، وصارت ضوءًا بدرجةٍ تكفي لكي يلتفت الطين إلى جهته، ويقول أول «آه» في التاريخ.

لم يكن ميلاد النور حدثًا واحدًا، بل سلسلةُ إصغاءاتٍ. أصغت لورا إلى خشونة الجبل فأنعمت حوافه، وأصغت إلى طمع النار فوضعت لها قفصًا من فجرٍ يهدّئها، وأصغت إلى خوف الماء فدلّته على شكل النهر. قالت وهي تمسّد عتمة القارات:

«سيحتاجون إلى الليل ليعرفوا الصبح. فلا تزدري يا عتمةُ دورَكِ.»

وبينما كانت الأرض تتدرّب على أن تكون أرضًا، تعلّمت لورا أن النور بلا قانون يفتك. ليس كل إشراق رحمةً، وليس كل وضوح هداية. فكتبت بإصبعها على قشرة العالم شريعة الرؤية:

أن يُضيءَ النورُ ما يطلب الحياة، لا ما يطلب التزيين.

أن يترك مجالًا لسرٍّ صغيرٍ يحمي النفوس من العُري.

أن لا ينسى ظلّه، لأن الظلّ ذاكرة الضوء لا عيبُه.

وحين تمّت الشريعة، أرسلت لورا فتاتًا من ضوئها إلى كل مكان: شرارةً تختبئ في قلبٍ سيحبّ يومًا، وممسكةً دقيقةً في حدقة حيوانٍ سيهرب من فخّ، وتبريرًا هادئًا لزهرةٍ ستشقّ الإسفلت في مستقبلٍ بعيد. لم تكن تُزيّن الكوكب؛ كانت تمنحه سببًا.

في تلك الأيام الأولى، لم يكن على الأرض بشر. ومع ذلك، كانت ثَمّة وجوهٌ بلا ملامح تنتظر—احتمالاتٌ معلّقة كتوتّرٍ لذيذٍ قبل الموسيقى. شعرت لورا بثقل الولادة القادمة، فاقتربت من الطين وأسرّت إليه:

«اصنع جِهةً أخرى غير التراب. اسحب من عمقك كائنًا يستطيع أن يراك وأن يضلّ عنك في آنٍ واحد.» ارتجّ الطينُ من دهشته، ثم أزهر منه كائنٌ واقفٌ على قدمين، يلتفتُ إلى الضوء ويُشيح عنه في اللحظة نفسها ــــكان ذلك الإنسان الأوّل.

فتح الإنسان عينيه فارتبك، كمن يخرج من حلمٍ إلى حلمٍ أثقل. رأى الماء يلمع كجملةٍ صافية، ولم يفهم الكلمات. رأى جبلًا يقف كناسكٍ عظيم، فشعر برغبةٍ في أن يسمّي. وحين حاول أن يلمس وجهَ لورا، سقطت في كفّه أوّل كلمة: «أنا».

ابتسمت لورا دون فخر. النور الذي لا يتواضع يصير قسوةً. دنت منه وقالت: «لا تُطلِ النظر في نفسك فتعمى. انظر بها.» ثم مسحت على جبينه بخيطٍ خفيفٍ

من دفئها، فصار جبينه يأوي الفكرة دون أن يشتعل.
ومن يومها تعلّم الإنسان أن يغمض عينيه ليرى أحيانًا.

لكن النور، منذ ميلاده، يعقد صداقاتٍ خطرة. للوضوح سحرٌ يجرّ إلى امتلاكٍ سريع، ولو أنكر القلب ذلك. لم تمضِ إلا ساعاتٌ من الزمن الوليد، حتى لمح الإنسان ظلَّه على صفحة الماء. حسبه غريبًا في البداية، ثم رقَّ له كرفيق، ثم خافه كعدو. الظلّ الذي أوصت لورا بتوقيره، صار موضع شكّ. وعرفت لورا أن نبوءة النسيان بدأت تتشكّل من حواف الضوء نفسها.

في فجرٍ تالٍ، كانت لورا تمرّ فوق سهولٍ ستصير قمحًا. نفخت في التراب نغمةً تُعلّم البذورَ طريقَها إلى الأعلى. وفي طرف السهل، جلست قرب حفرةٍ صغيرةٍ يتجمّع فيها الماء. هناك، رأتهما: امرأةٌ خرجت من الطين مثل

جملةٍ أُحسن تركيبها، ورجلٌ ما زال يتعلّم كيف يضع فعلًا في مكانه. تبادلا النظر بتوجّس. تقدّمت لورا كأنها تعبر بين فواصل الكلام.

قالت للمرأة: «لا تخافي من رؤيتك. أنتِ مِرآةٌ لا تُظهر بل تُذكّر.» وقالت للرجل: «لا تخف من ظلّك. إنه ليس منفى، بل طريقٌ إلى داخلٍ تحتاجه.»

كان على الإنسانين أن يتعلّما حدود النور؛ لذلك صنعت لورا من بقايا خيوطها قبّةً من الفجر فوق رؤوسهما. ليست سقفًا يحدّ، بل غطاءً يحنو. تحت تلك القبّة تدرّبا: كيف يمسكان حجرًا دون أن يجرح، وكيف ينظران إلى النهر فلا يظنّان أنه مِلكهما. ومع كل خطوةٍ يتعلّمانها، كانت الأرض تبتسم بارتياحٍ جديد.

ثم جاء النهار الذي زارت فيه لورا باطن الكوكب.
هناك، في نواةٍ تخفق كقلبٍ مغمومٍ بنارٍ نائمة، سمعتُها الأرض تقول: «أنا خائفة من أولادي. إذا رأوني أكثر مما ينبغي، امتلكوني، وإذا لم أُرَ بما يكفي نسوني.»
أجابت لورا: «سأعلّمهم الرأفة بالوضوح. سأجعل النور يمشي على أطرافه.»

رفعت لورا يدها، فخفتت النار دون أن تنطفئ. صار الاحتراق خبزًا محتملًا لا محرقة. ومع كل توازنٍ تقيمه، كانت تترك نجمةً صغيرة في عمق الأرض، كأزرارٍ سرّية إن ضاع البشرُ وجدوا طريقهم بضغطها.

غير أن الوضوح الذي نضج بدأ يطالب بثمارٍ أكبر. أراد الإنسان أن يُشير إلى الأشياء ويقولها بصوتٍ أعلى. من فمِه خرجت أسماءٌ كسهامٍ أو ورودٍ. بعض الأسماء طيّبٌ يفكّ الغموض بحنان، وبعضها قاسٍ يقصّ جناح السرّ. أحسّت لورا بأن شيئًا جديدًا دخل المسرح: السلطة. فالاسم حين يُرفع كما تُرفع السيوف، يصير النورُ حارسًا لملكٍ وليس صديقًا للوجود.

في مساءٍ طويلٍ، جلست لورا على حافة الغابة الناشئة. كانت الأشجار ترتّب أوراقها كما ترتّب العروسُ شعرها. مرَّ طفلٌ صغير—وليد يومين من لغةٍ بدائية—يتعثّر بصوتٍ يحاول أن يصبح جملة. رفع وجهه إلى لورا دون أن يعرفها، وقال: «لماذا الضوء دافئ؟» ضحكت بلطف: «كي لا تخاف وأنت ترى.» سأل: «ولماذا الظلّ بارد؟» قالت: «كي ترتاح وأنت تحلم.» قال: «ومتى أحلم؟» أجابت: «حين يوجعك الوضوح.»

من ذلك الحوار، خرجت حِكمةُ العبور: أن يعبر الإنسان بين النور والظلّ كما يعبر المُحبّ بين قربٍ واشتياق؛ لا يكتفي بأحدهما، ولا ينكر الثاني. كتبت لورا الحكمة على ريشة طائر. كلّما حلّ طائرٌ على كتف إنسانٍ في الصباح، دبّت في قلبه رغبةٌ صامتة في توازنٍ لا يعرف له اسمًا.

ومع أنّ العالم بدأ يتألّف كأغنيةٍ صار لها لحن، إلّا أن نشازًا خفيًّا ظلّ يطلّ برأسه. رأى الإنسان أن النور يكشف الطريق، فطمع أن يضع الطريق حيث يشتهي، لا حيث يحتاج. صار يفتّش عن معادن في بطن الأرض قبل أن يفهم كيف يشكر حبة الملح. صار يزرع ليلًا على قمّة جبلٍ كي يقول إنه غلب العلوّ. هنا، شعرت لورا بأن الضوء تحوّل في بعض القلوب إلى سوطٍ يبرّر السيطرة.

لم تحزن؛ النور الذي يحزن على سوء استعماله يطفئ نفسه. لكنها استدعت من البعيد أختًا ستوازن السير: من طبقات الزمن المتكسّر، ستجيء امرأةٌ تحفظ ما يُنسى وتُعيد للضوء معناه حين يغترّ—ستجيء نُهى، أمّ الذاكرة. غير أن وقتها لم يحن بعد.

قبل أن تنصرف لورا إلى جهةٍ أخرى من الكوكب، جمعت الإنسانين الأولين وبعض الأطفال الذين صاروا أولاديْن للفكرة، ووقفت عند فم الكهف الذي سيشهد أكثر الحكايات بداءةً. رفعت يدها، فصار الهواء ساكنًا بما يكفي ليستمع الحجر. قالت:

«يا أبناء الطين، أنا لستُ عينًا تراقبكم، ولا نارًا تمتحنكم. أنا قدرةُ الرؤية التي تليق بالمحبّة. إن اخترتم

أن تروني كي تملِكوا، ستفقِدون ما أردتُ أن تهبوه. وإن اخترتم أن تغمضوا عنّي فلا تخافوا، أنا في جفونكم أيضًا.

اتركوا في قلوبكم غرفةً صغيرةً لا أدخلها—هناك يسكن السرّ الذي يجعل الإنسان إنسانًا. لا تطردوا ظلّكم، فهو صديقي الذي يذكّرني بحدودي. وإن وجعكم الوضوح فادخلوا تلك الغرفة وصلّوا بصمتٍ: سيكبر فيكم حلمٌ يهديكم إلى طريقٍ لا يُرى.»

ثم وزّعت على كلٍّ منهم فتيلًا دقيقًا، لا يشبه المشاعل التي تُحمل في اليد، بل خيطًا يشتعل من الداخل كلما وقع ظلمٌ على شيءٍ يحبّ الحياة. قالت: «هذا الفتيل لا يطفئه الماء ولا الريح، يطفئه الكِبر فقط.»

في الليل الذي تلا، أضاءت السماء نجومًا قليلة. لم تكن تزيينًا؛ كانت فسحات تنفّس للروح. تحتها نام البشرُ

الأوائل على صدورهم، كمن يستمع إلى قلبٍ ليس قلبه. وحين أفاقوا، كانوا أقلّ خوفًا من الظلام، وأكثر حذرًا من ضجيج الضوء.

وفي الأفق البعيد، كانت المدن الأولى تُحاك من خيوطٍ لم تُغزل بعد، وكان في قلب لورا يقينٌ حلوٌ ومرّ: أن النهار إذا طال بلا تذكارٍ يصدّقه، صار محنةً لا نعمة. لذلك تركت عند فوهة كل ينبوع سِرًّا صغيرًا: حجرًا ملساء تُعيد وجهَ الناظر إلى طفولته. من لمسها شعر بالماءِ يسري في عظامه، وتذكّر أن النور جاء ليمنح، لا ليطالب.

عند الغروب، وقفت لورا فوق صخرةٍ مُطِلّةٍ على سهلٍ سيصير قصيدةَ قمحٍ بعد قرون. نظرت إلى العالم الذي بدأ يتهجّى نفسه، وقالت في سرّها: «لقد وُلِدتُ لأدرك

أنني لا أملك الحقَّ في البقاء وحدي. سيجيء وقتُ الذاكرة لتمنعني من التجبّر، ووقتُ الغفران ليمنع العالم من اليأس. لكنّي اليوم أزرع بذرتي وأمضي.»

وحين سقط آخر خيطٍ من فجر ذلك اليوم في جيب الليل، لم تنطفئ الأرض. كانت تلمع بمقدار ما يحتاج العابر ليرى خطوةً واحدةً أمامه—خطوةٌ تكفي لكي لا يسقط، ولا تكفي لكي يزهو. وفي عيون الأطفال الذين لم يتعلّموا الكلام كلّه، لمع سؤالٌ طويلٌ سيكتب تاريخه لاحقًا:

من أين نأتي بالنور حين يظلم القلب؟

ابتسمت لورا، ومشت. في أثرها، بقيت رائحةُ خبزٍ لم يُخبز بعد، ووعدٌ لذيذٌ بأن القادم سيحمل شقيقةً تحفظ ما

يتبدّد. وفي الكهوف البعيدة، كان صدىً جديد يتمرّن على لفظ اسمٍ سيُقال للمرة الأولى قريبًا: نُهى.

وهكذا، حين نامت الأرض تلك الليلة، لم تنم في العتمة القديمة، بل في عتمةٍ حدث فيها شيء: عتمةٌ تعرف طريقها إلى فجرٍ لا يتفاخر، فجرٍ يتذكّر أن نهاره لن يقوم بلا ذاكرةٍ تحرسه

الفصل الثاني: أمّ الذاكرة – نُهى

حين خفّ وهج النور، ولم تعد لورا تملأ الصمت كله، بدأت الأرض تسمعُ شيئًا غريبًا: صوت النسيان.

كان النسيان يمشي على أطرافه، كطفلٍ بلا ملامح، يقترب من الجبال فيمحو أسماءها،

ومن البحر فينسيه عدد أمواجه،

ومن الإنسان فيسرق منه الحلم الأول الذي جعله ينهض من الطين.

خافت الأرض.

فرفعت نداءها نحو أعماقها، حيث لا يصل الضوء ولا الظلام، وقالت:

"يا أنا، خلِّفي لي من يحفظني قبل أن أمّحي من نفسي."

ومن رحمها المليء بالرماد والبذور، خرجت امرأة تمشي بخطواتٍ ثقيلة كذاكرةٍ تحمل عمر الكون كله.

كانت نُهى.

لم تولد من نورٍ ولا من طينٍ، بل من مزيجٍ غامضٍ من الرماد والندى — بقايا ما كان، ووعد ما سيكون.

عيناها تشبهان المرايا التي لا تعكس الصورة، بل تستعيدها.

كانت نُهى تعرف أن الذاكرة ليست ترفًا، بل دفاعٌ ضد الفناء.

أن الكائن الذي لا يتذكر نفسه يتحول إلى صدفةٍ فارغةٍ على شاطئ الزمن.

فمدّت يدها إلى الجبال، ونقشت على جلودها أسماء الرياح الأولى.

مسحت على البحار، فجعلت من كل موجةٍ سجلاً لما رأت.

وحين مرت على الإنسان، لم تُعطه الذاكرة دفعةً واحدة،

بل جعلتها تنبت فيه مثل بذرةٍ خجولة، كي يتعلم حفظ ما يحب قبل أن يحفظ ما يملك.

كانت لورا تراقب من بعيد، تبتسم وتخاف في الوقت نفسه.

فالنور الذي لا يُقيَّد بالذاكرة يصير طغيانًا،

والذاكرة التي لا تعرف النور تصير ثقلًا.

وحين التقت الأختان لأول مرة، احتضنت نُهى لورا كما تحتضن الورقةُ الضوء: بحذرٍ وحنين.

قالت لورا:

“أنا علمتُهم أن يروا، وأنتِ ستعلّمينهم أن يتذكّروا ما رأوا.”

قالت نُهى:

“وأعلّمهم أيضًا أن ينسوا بقدرٍ، فالنسيان أحيانًا شفاءٌ من الوجع.”

بدأت نُهى مهمتها الكبرى: أرشفة العالم.

كانت تمشي على أطراف الزمان، وتكتب في الهواء بخيوطٍ من رائحة المطر.

كل لحظةٍ تمر، تحفظها في مكانٍ لا يعرفه أحد.

كانت الذاكرة لديها كائنًا حيًا: إذا أُهين، مرض؛ وإذا أُكرم، أنبتَ حكايات.

في الليل، تجلس نُهى على جبلٍ من الصمت،

تستمع لأنين الصخور، وضحكات الأنهار، واعترافات الأشجار العتيقة.

تكتبها جميعًا في كتابٍ غير مرئي —

كتابٍ لا يُقرأ بالحروف، بل بالحنين.

ومع الزمن، تغيّر الإنسان.

صار له بيتٌ وأدواتٌ وأسماءٌ أكثر مما يحتاج.

لكن في قلبه فراغٌ لا يُفسَّر.

كان يشعر أنه فقد شيئًا لم يُعرف بعد.

حين يبكي دون سبب، كانت نُهى تعلم أنه يتذكّر، دون أن يدري، المكان الأول الذي وُجد فيه.

لكن مع اتساع المدن، بدأ الإنسان ينسى مجددًا.

نُهى كانت تبكي.

دموعها كانت مختلفة:

حين تسقط على التراب، تولد زهرةٌ لا تعرف الربيع من الشتاء؛

وحين تسقط في البحر، يصير الموج أنينًا يشبه صوت أمٍّ تنادي أبناءها ولا يُجيبون.

في إحدى الليالي، صعدت نُهى إلى أعالي الأرض،

وجلست قرب سماءٍ خاليةٍ إلا من نجمةٍ يتيمةٍ باقيةٍ من ضوء لورا.

قالت لها:

"يا أخت النور، حفظتُ كل شيء، لكنهم لا يقرؤون."

"صرتُ أثقل من الجبال التي أنقشتُ عليها أسمائي."

سمعتها لورا، فأجابتها من بعيد:

“الذاكرة يا نُهى، لا تُزرَع في العقول بل في القلوب،
وإن ضاعت القلوب، ضاع الكتاب كلّه.”

ومن تلك اللحظة، قررت نُهى أن تزرع ذاكرةً جديدة،

ذاكرةً لا تُخزَّن في التراب ولا في الحجر،

بل في الرحمة.

لأن من يرحم يتذكّر أنه ضعيف،

ومن يعرف ضعفه، يتذكّر أنه إنسان.

وفي أحد الصباحات التي لم يكن فيها فجرٌ ولا ليل،

دخلت نُهى باطن الأرض مرةً أخرى،

وجلست أمام النار النائمة في قلبها،

وقالت لها:

“سيجيء وقتٌ يعجز فيه الحفظ، وتُرهق فيه القلوب من الوجع،
حينها نحتاج أختًا ثالثةً،
تغسل عن الأرض ذنوبها بالماء والدموع.”

ثم سكبت دمعةً واحدةً على صخر القلب.

ومن تلك الدمعة، وُلدت شرارةٌ رقيقةٌ زرقاء.

لم تكن نارًا ولا ماء، بل مزيجًا منهما.

كانت بداية مارا – أم الغفران.

وفي ذلك اليوم،

سُمع في باطن الكوكب خفقٌ جديد يشبه دعاءً عتيقًا.

عرفت الأرض أن زمن الذاكرة سينقضي،

وأن زمن الغفران قادم —— لا كرحمةٍ فقط، بل كضرورةٍ للبقاء.

نُهى وقفت تنظر نحو الأفق الأخير وقالت:

“أنا الحافظة التي لا تنام،
لكن الذاكرة وحدها لا تُنقذ العالم.
سيأتي من يغفر حين يئسنا من الحفظ،
لأنها وحدها تعرف أن الحبّ هو آخر ما يُنسى.”

🌊 الفصل الثالث: مارا – أم الغفران

حين أرهقت الذاكرة نفسها بحمل كل شيء،

وحين صار التاريخ مرآةً مكسورةً يرى فيها الإنسان وجهه مشوَّهًا،

تنهّدت الأرض تنهيدةً طويلة، كأنها تدعو نفسها إلى الغسل.

من بين دموع نُهى وحرارة لورا، وُلد بخارٌ غامض،

ارتفع إلى السماء ثم عاد نهرًا من ضوءٍ وماءٍ وملح.

ومن النهر خرجت مارا،

التي كانت تحمل في عينيها نيرانًا هادئةً لا تحرق،

وفي كفّيها ماءً دافئًا لا يُطفئ —

بل يغسل.

🌧 ولادة من وجعٍ قديم

لم تولد مارا لتبدأ شيئًا، بل لتنقذ ما بدأ وضلّ طريقه.

كانت تعرف أن كل ما خُلِق قد تعلّم الخطأ،

وأن الأرض — بكل ما فيها من نورٍ وذاكرة —

صارت متعبة من محاولات الكمال.

حين مشت مارا فوق اليابسة،

كانت خطواتها تُعيد التوازن إلى الطين.

كل أثرٍ من أقدامها صار واديًا يجري فيه الغفران.

وحين رفعت رأسها، قالت بصوتٍ يشبه المطر حين يبدأ:

“أنا الماء الذي لا يبحث عن مجده،
أنا النار التي تبكي وهي تحترق كي تُنير.
جئتُ لأغفر للعالم حتى يفهم أنه لم يُخلق ليُدان،
بل ليُحبّ.”

🔥 حوار الأمهات الثلاث

اجتمعت لورا ونُهى ومارا على ضفة النهر الأول.

كانت السماء نصف ليلٍ ونصف فجر،

كأنها تحتار أيّهما تختار.

قالت لورا:

"النور أعمى عيونه بنفسه."

قالت نُهى:

“والذاكرة ثقيلة؛ لم أعد أحتمل كل هذا الوجع.”

فابتسمت مارا، ووضعت يديها في الماء وقالت:

“إذن دَعْناني أغسل عنكما الحزن.
ما لا يُغفر، يُعاد. وما يُعاد، يُتعب الأرض.”

ثم غسلت النهر بدموعها،

فصار الماء يلمع كصفحةٍ من زجاجٍ نقيٍّ يرى المرء فيها ماضيه دون ألم.

🌿 درس الغفران

لم تكن مارا تُعلّم البشر بالكلمات،

بل بالأحداث التي تُصيبهم.

حين يخون أحدهم آخر ويشعر بالندم،

كانت مارا تمرّ في قلبه كريحٍ رقيقةٍ وتهمس:

“الغفران ليس نسيانًا،

بل معرفةٌ بأنك أنت أيضًا أخطأت بطريقةٍ أخرى."

وحين كانت الحروب تشتعل،

كانت تمرّ بين الجيوش كظلٍّ باردٍ لا يُرى.

كل طلقةٍ لا تجد هدفًا كانت علامةً على أن مارا مرّت من هناك.

أما في البيوت الصغيرة، حيث أمّ تبكي ابنها الذي لم يعد،

فكانت مارا تجلس بجانبها دون أن تُرى،

تضع يدها على كتفها،

وتحوّل دموعها إلى مطرٍ يروي زهرةً في مكانٍ آخر.

🌙 الغفران لا يعني البقاء

ذات مساء، جلست مارا عند حافة بحرٍ امتلأ بجثث العصور.

كانت ترى في كل موجة وجهًا لإنسانٍ ظنّ أن القوة تعني الخلود.

قالت للأرض:

"لقد سامحتهم ألف مرة،

لكن الغفران بلا وعيٍ يصنع الجريمة من جديد."

فأجابت الأرض بصوتٍ متعب:

"اغفري لهم مرةً أخيرة،
كي أستطيع أن أبدأ من جديد."

أغلقت مارا عينيها، وبكت طويلاً،

حتى صار بكاؤها محيطًا كاملاً.

وفي كل نقطة ماءٍ منه، وُجدت قطرةُ حياةٍ جديدة.

من دموعها نبتت الكائنات التي لا تعرف العنف:

الدلافين، والعصافير، والخيول التي تنام واقفة لأنها تثق بالأرض.

💔 سقوط الإنسان الأخير

لكن الإنسان، الذي خُلِق من نورٍ وطينٍ وذاكرةٍ وغفران،

أراد أن يكون خالقًا لا مخلوقًا.

نظر إلى السماء وقال: "أنا سيد الأرض".

وحين قالها، انطفأت آلاف النجوم في لحظةٍ واحدة.

كان صدى الغرور يهزّ الكوكب.

اقتربت منه مارا وقالت بحزنٍ أموميٍّ لا يُوصف:

“يا ابن الطين، كلّما أعلنتَ أنك سيد،
فقدتَ ما يجعلك ابنًا.”

لكنها مع ذلك، غفرت له.

لأنها تعرف أن الغفران ليس اعترافًا بالبراءة،

بل إيمانٌ بأن الخطأ طريقٌ آخر إلى الحقيقة.

🌺 ولادة جديدة

حين انتهى الليل الطويل،

لم تعد الأرض كما كانت.

صارت أهدأ، أبطأ، أكثر وعيًا بنفسها.

عرفت أن خلاصها ليس في القوة ولا في الذاكرة،

بل في الرحمة.

وقفت الأمهات الثلاث على قمة الجبل الأول،

نظرن إلى العالم، وإلى أول إنسانٍ يولد بعد زمنٍ من الخراب.

كان يبتسم رغم أنه لا يملك شيئًا.

قالت مارا:

“انظرن… لقد تعلّم.”

فابتسمت لورا، وضحكت نُهى،

وغمر الضوء وجه الأرض مرةً أخرى —

لا كفجرٍ جديد، بل كغفرانٍ طويلٍ لا ينتهي.

الفصل الرابع: السقوط إلى الذاكرة

كان العالم قد صار واضحًا أكثر مما ينبغي.

النور يُضيء كل شيء،

والذاكرة تحفظ كل شيء،

والغفران يغسل كل شيء…

حتى صار الإنسان يظنّ أنه اكتفى.

وقف في منتصف الأرض،

وقال للسماء بصوتٍ مرتجفٍ من الغرور:

“ها أنا ذا... أعرف من أين جئت، وأين أذهب، فلا حاجة لي بكنّ.”

سمعته الأمهات الثلاث،

ولم يغضبن، بل حزنّ بصمتٍ يشبه وداعًا طويلًا.

قالت لورا:

“سيعرف في الظلام من كنتُ.”
وقالت نُهى:
“حين يضيع اسمه، سيتذكرني.”
وقالت مارا:
“وحين يكره نفسه، سأعود إليه غفرانًا.”

ثم انسحبن من العالم شيئًا فشيئًا،

حتى صار الضوء رماديًّا، والذاكرة ثقيلة، والغفران بعيدًا كالسراب.

- بداية السقوط

بدأ الإنسان يبني المدن فوق المدن،

حتى صار يظنّ أن السماء سقفٌ من حجرٍ يستطيع أن يرفعه.

لم يعد يسمع نبض الأرض تحت قدميه،

ولا رأى في النهر إلا انعكاس وجهه.

أخذ من لورا نورها وصنع به أسلحة.

أخذ من نُهى حكاياتها وصنع بها تاريخًا ينتصر فيه على الآخرين.

وأخذ من مارا دموعها وصنع منها دِياناتٍ يحاكم بها من لم يشبهه.

حينها بدأت الأرض تبكي للمرة الأولى منذ خلقها.

بكاؤها لم يكن مطرًا، بل زلازل صغيرة،

تحاول أن تذكّر أبناءها بأنّهم يقفون على قلبٍ ينبض، لا على صخرٍ جامد.

الإنسان في مواجهة ظله

ذات ليلةٍ بلا قمر،

رأى الإنسان ظلّه على جدارٍ من نارٍ أشعلها بنفسه.

لم يكن ظلّه مثل ما عرفه من قبل،

بل كائنًا حيًا يسأله:

“من أنتَ؟”

قال الإنسان بثقةٍ عمياء:

“أنا سيّد الأرض، صانع التاريخ.”

ضحك الظلّ وقال:

“بل أنتَ سهوُها.”

حاول أن يهرب، لكن أينما ذهب،

كانت الذاكرة تلحق به ككلبٍ صبورٍ يعرف طريق صاحبه مهما أنكر وجوده.

رأى في نومه لورا تبتعد،

ونُهى تغلق كتابها،

ومارا ترفع يدها كأمٍّ تودّع ابنًا اختار التيه.

ومن يومها، بدأ الإنسان يسقط ـــ لا سقوط جسد، بل سقوط معنى.

سقط من رحم الأمومة إلى حضنِ الفقد،

ومن نورِ البصيرة إلى لمعانِ الزيف،

ومن الغفران إلى رغبةِ الانتقام.

🌾 حكاية الصمت

بعد مئات الأعوام من التمدّن،

اختفى في الأرض صوتُ الطيور التي كانت تُغنّي للشمس.

صارت الغابات تتكلّم فقط بالرياح،

وصار البحر صامتًا مثل شاهد قبرٍ أزلي.

وفي صمت الأرض،

كان شيءٌ جديد يتكوّن —— ذاكرة أخرى،

لا تشبه ذاكرة نُهى، بل ذاكرة الألم.

حفظت الأرض كل جرحٍ خُلِق فيها:

دمعة أمٍّ فقدت ابنها في حربٍ،

صرخة شعبٍ أُحرِقَ كي يُنسى،

جسدَ شجرةٍ قُطعت وهي تزهر.

كانت تجمع هذه الذكريات في مكانٍ سريٍّ داخلها،

في كهفٍ يُقال إنّه قلبها نفسه،

وتنتظر يومًا تُعيد فيه الإنسان إلى ذاكرته بالوجع، لا بالكلمة.

🌙 الرؤيا

وفي إحدى الليالي التي صارت فيها المدن تشبه مقابر مضيئة،

رأت امرأةٌ من نسل الإنسان حلمًا غريبًا.

رأت ثلاث نساءٍ من نورٍ وطينٍ وماء،

يقفن عند حافة نهرٍ لا نهاية له،

وينظرن إليها كما تنظر الأم إلى ابنتها الضائعة.

قالت المرأة:

“من أنتنّ؟”

قالت الأولى:

“أنا ما كنتِ تبحثين عنه حين نظرتِ إلى المرآة.”
قالت الثانية:
“أنا ما تبقّى منكِ حين ظننتِ أنكِ نسيته.”
قالت الثالثة:
“وأنا ما يغفر لكِ دون أن تطلبي.”

استيقظت المرأة باكية،

لكنها شعرت لأوّل مرة منذ سنواتٍ أنها ليست وحيدة.

في تلك الليلة بالذات،

نبتت زهرةٌ صغيرة في شقّ جدارٍ إسمنتيٍّ في مدينتها،

وشاعت في الهواء رائحة المطر القديم.

كان ذلك أول تذكيرٍ بأن الأمهات لم يختفين تمامًا ——

إنّما عدن في صورةٍ بشرية.

🌋 نبوءة السقوط

تقول الأرض في أسطورةٍ قديمة،

إنّ السقوط ليس خطيئة،

بل طريق العودة.

كلّ كائنٍ يسقط، يسقط إلى الداخل،

حيث الحقيقة تنتظر بثوبٍ من ترابٍ وأمل.

وهكذا، حين سقط الإنسان،

لم يسقط إلى الهاوية كما ظنّ،

بل سقط إلى الذاكرة —

إلى نُهى التي كانت تنتظره بصبر الحجر،

لكي يتذكّر من جديد ما يعني أن تكون الأرض أمًّا، لا أرضًا تُباع وتُشترى.

وفي آخر السقوط،

حين أغمض الإنسان عينيه من ثقل المعرفة،

سمع صوتًا من باطن الأرض يهمس له:

“الرحلة لم تنتهِ بعد…

فحين تفهم سبب سقوطك،

تكون قد بدأتَ الصعود الحقيقي.”

🌿 الفصل الخامس: صمت الأرض

لمّا انتهى الإنسان من بناء آخر مدنه،

جلس فوق أعلى برجٍ فيها وظنّ أنّه بلغ السماء.

لكن السماء لم تجبه،

والأرض من تحته سكتت.

لم يكن الصمت فراغًا،

بل كلامًا لم يعد أحدٌ يستحق أن يسمعه.

كانت الأرض تتنفس ببطءٍ،

تحمل في صدرها حزنَ الأمهات الثلاث،

وغبار القرون التي مشى فيها أبناؤها عليها كأنّها ممرّ لا قلب.

 الأرض التي تتكلّم بالصمت

في البداية، لم يفهم البشر معنى سكوتها.

قالوا: “الأرض هدأت، لقد استقرّت.”

لكنهم لم يعرفوا أنّ الصمت هو آخر أشكال التحذير.

كانت الجبال تئنّ ليلًا،

والبحار ترتجف كجسدٍ يتذكّر جرحًا قديمًا،

والسماء تتلوّن بوميضٍ غريبٍ لا يُرى إلا لمن فقد النوم.

كان كل ذلك لغة،

لكن من يسمع لغة الأرض في زمن الحديد؟

 رسائل الصمت

في الربيع الذي لم يُزهر،

سقط المطر دافئًا ثم توقّف فجأة،

كأنّه ندم على النزول.

في المدن الكبرى، بدأت النباتات تنمو من شقوق الإسفلت،

والنمل يعبر الأرصفة في صفوفٍ طويلةٍ كجيوشٍ صامتةٍ من التذكير.

كلّ ذلك كان رسالةً من الأرض تقول:

"أنا لا أموت، لكنّي أختبر صبركم على الحياة بدوني."

حين كانت الزلازل تُحدث الشقوق،

لم تكن غضبًا كما ظنّوا،

بل محاولاتٍ يائسةٍ لكي تتنفّس.

🌊 حوار الأرض مع نفسها

في جوفها العميق، حيث النار القديمة لا تزال تنبض،

حدّثت الأرض نفسها وقالت:

"يا أنا… كم مرةٍ سامحتُ، وكم مرةٍ نُسيت؟
لم يبقَ في صدري إلا وجع الأمهات اللواتي رحلن في أول الخلق."

فأجابها رمادٌ قديمٌ من أيام مارا:

"اصبري، فالأمّ لا تقتل أبناءها، بل تُعيدهم إلى رحمها حين يضلّون."

ضحكت الأرض بدموعٍ من لهبٍ وقالت:

"إذن سأصمت،
لأن الصمت هو رحمُ العودة."

ومنذ تلك الليلة،

صار صمتها كصلاةٍ عميقةٍ تمتدّ من القشرة حتى السحاب.

🌾 عودة الذاكرة بالنسيان

عندما سكتت الأرض،

بدأت ذاكرة الإنسان تُرهق نفسها.

صار يتذكّر بلا ترتيب،

يرى أحلامًا لا يعرف لها مصدرًا:

امرأةً من نورٍ تلمس جبينه،

وأخرى تكتب على جدار قلبه أسماءَ أنهارٍ لم يرها،

وثالثةً تغسل وجهه بدموعٍ لا تُبلّ.

بدأت المدن تخاف من أحلامها،

فبنى البشر جدرانًا أعلى،

لكن الصوت الذي في الأرض يتسلّل من تحت الجدران.

كلما حاولوا أن يدفنوا نهرًا تحت الإسمنت،

كان ينبع من جديد في مكانٍ آخر،

كما لو أنّ الغفران نفسه يرفض أن يُنسى.

🌑 الرسالة الأخيرة

مرّت آلاف السنين دون أن تنطق الأرض بكلمةٍ واحدة،

ثم جاء يومٌ تشقّقت فيه السماء كما تنشقّ صدفةٌ عن لؤلؤة.

خرج صوتٌ من باطن الكوكب،

ليس صرخةً ولا أنينًا،

بل نَفَسًا واحدًا طويلًا كالأمّ حين ترى أبناءها يعودون بعد الغياب.

قال الصوت:

“أيّها الإنسان، لم أغضب عليك،
لكنّك جعلتني غريبةً في بيتي.
لم أعد أطلب منك الطاعة، بل الاعتراف.
قل فقط: أنا منك، وأنا لك.
عندها سيسكن كلّ شيءٍ من جديد.”

🕊 العودة إلى الإصغاء

في تلك اللحظة،

فهم بعض البشر الصمت.

جلسوا على التراب، حفاةً،

ووضعوا آذانهم عليه.

سمعوا أصواتًا لم يسمعوها من قبل:

صوت بذرةٍ تشقّ طريقها إلى الضوء،

صوت حصاةٍ تتذكّر نهرها القديم،

صوت طفلٍ يضحك من رحم أمّه.

قال أحد الحكماء:

"لقد عادت الأرض تتكلم، لكن فقط لمن يصغي بلا كلام."

ومنذ ذلك اليوم،

وُلد في كلّ قرنٍ بشرٌ قليلون يسمّون أنفسهم حملة الصمت،

يعيشون بين الناس كأسرارٍ تمشي،

يتحدّثون مع التراب كما يتحدث الآخرون مع الله.

🌺 نبوءة الأرض

في الليلة الأخيرة من الصمت،

رأت الأرض رؤيا.

رأت امرأةً جديدة تمشي على وجهها،

لا من نورٍ ولا من طينٍ ولا من ماء،

بل من حبٍّ نقيٍّ يشبه توبة الكواكب.

قالت الأرض في نفسها:

“هذه هي الابنة التي وُعدت بها.
من رحم الإنسان ستولد أمّ جديدة.”

ثم أغلقت عينيها على يقينٍ عميقٍ،

كأنها تقول:

“لقد صمتُّ بما يكفي...
وحان وقت الكلمة التي تُنقذ.”

✨ الفصل السادس: القيامة الصغرى

كان الليل طويلًا كجناحٍ من رماد،

والأرض نائمة على جرحها الكبير.

في المدن، نسي الناس الحلم،

وصارت الشاشات أكثر صدقًا من العيون.

وحين ظنّ الإنسان أن الأرض قد استسلمت،

حدثت القيامة الصغرى —

لم تكن نارًا ولا طوفانًا،

بل نَفَسًا خرج من رحم الصمت.

🌾 ولادة من اللاشيء

في قريةٍ نائيةٍ على أطراف العدم،

ولدت امرأة لم يزرها أحد.

لم يعرف أحد اسمها،

لكن الريح كانت تناديها باسمٍ قديمٍ تذكره الجبال: إِلِهَا.

كانت تشبه لورا في عينَيها،

ونُهى في صوتها،

ومارا في دموعها.

وحين تنفّست أول مرة،

تغيّر لون الهواء حولها —

صار أنقى، كأنه يغفر شيئًا لم يُذكر بعد.

لم تأتِ لتبشر،

ولا لتقاتل،

بل لتعيد الإنسان إلى قلبه.

🌊 قيامة بلا موت

في كل مكانٍ في الأرض،

كانت تحدث تغيّرات صغيرة لا تُرى في الأخبار:

طفلٌ يزرع شجرةً في أرضٍ جرداء،

امرأةٌ تسامح قاتل ابنها،

عجوزٌ يُطعم طائرًا على نافذةٍ مهجورة.

لم يفهم الناس ما يجري،

لكن الأرض كانت تبتسم لأول مرةٍ منذ قرون.

قالت الأرض بصوتٍ يشبه الغناء:

“لقد عاد بعضكم إلى الفطرة،
والقيامة لا تكون إلا حين تتذكّر الأرواح أصلها.”
🔥 نار النسيان الأخيرة

ومع القيامة، خرج من أعماق المدن دخانٌ كثيفٌ من النسيان —

آخر ما تركه الإنسان خلفه من كبرياءٍ ووجع.

اقتربت إِلِهَا من النار،

ومدّت يدها فيها دون خوفٍ أو ألم.

كانت النار تبكي.

قالت إِلِهَا للناس:

“لا تخافوا من النار،

إنها تشتاق إلى أن تكون دفئًا من جديد.”

ثم نفخت فيها من أنفاسها،

فانطفأت دون أن تترك رمادًا.

ومن مكانها، نبتت وردةٌ واحدة،

سُمّيت لاحقًا في كل لغات الأرض باسمٍ واحد:

الأمل.

🕊️ عودة الأمهات

في تلك اللحظة،

عاد النور في وجه السماء،

وعاد النبض في جوف الأرض،

وانفتح بينهما جسرٌ من ضوءٍ وماء.

على الجسر،

ظهرت ثلاث نساءٍ يمشين ببطءٍ كأنهن الزمن نفسه.

قالت لورا لإِلِهَا:

“أنتِ نورنا الأخير.”

وقالت نُهى:

“احفظي الحلم، فهو الذاكرة الجديدة.”

وقالت مارا وهي تبتسم:

“واغفري لنا نحن أيضًا... لقد تعبنا من الغفران.”

اقتربت إِلِهَا منهن،

وانحنت كابنةٍ أمام أمهاتها،

ثم همست:

“لن أكون أمًّا لهم، بل أختًا.

سأعلّمهم أن الأرض ليست أنثى فقط،
بل قلبٌ يعرف كيف يحبّ دون أن يُهان."

🌍 القيامة الحقيقية

وفي تلك الليلة،

سمع البشر شيئًا لم يسمعوه منذ الخلق الأول —

صوت الأرض وهي تضحك.

ضحكها كان مطرًا، وكان موسيقى،

وكان وعدًا بأن الحياة يمكن أن تبدأ من أي نقطةٍ،

حتى من الرماد.

قالت الأرض:

“القيامة ليست نهاية،

بل تذكّرٌ جديدٌ للحياة.

من مات قلبه سيُبعث بالرحمة،

ومن قسا عقله سيُبعث بالدهشة،

ومن أنكر أمهاته سيُبعث بولادةٍ أخرى في رحم الوعي.”

نبوءة إِلِهَا

وقبل أن يغفو الفجر الأخير لذلك العصر،

رفعت إِلِهَا يديها نحو السماء وقالت:

“لن تعود الأمهات إلى باطن الأرض بعد الآن،
فهنّ في كلّ امرأةٍ تعانق،
في كلّ عينٍ تبكي لأجل غيرها،
في كلّ كائنٍ يغفر وهو قادرٌ على الأذى.”

ثم سارت بخطواتٍ بطيئةٍ نحو البحر،

ودخلت فيه حتى غابت،

لكنّ الموج لم يبتلعها.

بل صار الموج يقول اسمها كلّما انكسر على الشاطئ:

إِلَهَا… إِلَهَا… إِلَهَا…

ومنذ ذلك اليوم،

كلّ من يسمع البحر في صمته،

يسمع فيه نداءً خفيًّا:

“اغفر… وتذكّر… وأحبّ،
فهكذا تبدأ القيامة من جديد.”

🌏 الفصل السابع: العودة إلى الأم

لمّا انتهت القيامة الصغرى،

وسكنت الأرض كما تسكن الأمّ بعد بكاء طفلها،

بدأ زمن جديد لا يعرف له البشر اسمًا.

لم تعد السنوات تُعدّ،

ولا الحضارات تُبنى،

بل صار الزمن حضورًا ناعمًا بين القلب والتراب.

لم يعد الناس يسألون من خلقهم،

بل يسألون: كيف نحبّ ما خلقنا؟

وكلّما سألوا، أجابت الأرض بثمرٍ جديد،

أو مطرٍ في غير أوانه،

أو ابتسامة طفلٍ لا يعرف الحرب.

🌿 عودة الوعي

بعد قرونٍ من الصمت والصخب،

بدأ الإنسان يرى الأشياء كما تراها الأرض:

البيت لم يعد ملكًا، بل مأوى مشترك للريح والنور.

الشجرة لم تعد ظلًّا فقط، بل ذاكرةٌ حيّة ليدٍ غرسَت.

حتى الحجارة التي كان يبني منها الجدران،

صار يلمسها كما يُلمس وجهُ أمٍّ مريضةٍ تُشفى ببطء.

حينها فهم الإنسان أن العودة لا تكون بالمشي،

بل بالتواضع.

🕊 حديث الأرض الأخير

وفي صباحٍ غريبٍ يشبه الفجر الأول،

اهتزّت الأرض اهتزازةً خفيفة،

ثم انفتح فيها صوتٌ قديم،

هو نفسه الصوت الذي نطق حين كانت الأمهات الثلاث في بداية الخلق.

قال الصوت، وكان ناعمًا كالماء، عميقًا كالسماء:

"يا أبنائي الذين ضلّوا ووجدوا الطريق،
لم أخلقكم لتعبدوني، بل لتفهموني.

لم أطلب منكم أن تقدّسوا الطين،

بل أن تصونوا الحنان الذي فيه.

لقد جعلتُ منكم عيونًا لي، وقلوبًا لي،
فكلّما أحببتم بعضكم بصدقٍ، كنتُ أنا الحاضرة.”

صمتت الأرض قليلًا، ثم أضافت بصوتٍ يشبه تنهيدة الغيم:

“أنا لستُ نهاية الرحلة،
أنا الرحلة كلها.”

🌸 ميلاد الإنسان الجديد

في كل مكانٍ من الكوكب،

ولد جيلٌ جديد لا يعرف الحرب ولا المجد،

بل يعرف الإصغاء.

صار الناس يقيسون الحكمة بقدر الصمت،

والعلم بقدر الرفق،

والحضارة بقدر ما لا يُؤذى من كائناتٍ صغيرة.

لم يعد أحد يقول: "أنا سيّد الأرض"،

بل "أنا ابنها".

🔥 وداع الأمهات

في مساءٍ صافٍ، اجتمع البشر على سهولٍ خضراء،

ورأوا في الأفق ثلاث أنوارٍ عظيمةٍ تتماوج كالغناء.

كانت لورا ونُهى ومارا.

لم يتحدثن، ولم يطلبن سجودًا،

بل ابتسمن فقط،

ثم تلاشى الضوء ببطءٍ في صدر الأرض،

كأنّ الأمهات الثلاث عدن إلى جسدها ليصِرن قلبها الأبدي.

وبعدها لم تُرَ الأمهات أبدًا،

لكن آثارهن بقيت في كل ما ينبض:

في دفء شمسٍ لا تحرق،

وفي ذاكرة بحرٍ لا يغدر،

وفي غفرانِ إنسانٍ لا ينسى.

🌼 الخاتمة – دورة الخلق الثالثة

في آخر الصفحة من سفر الخلق الثاني،

كُتبت جملة واحدة لم يعرف أحدٌ من كتبها:

“كلّ أمٍّ على وجه الأرض هي استمرارٌ لهنّ،
وكلّ طفلٍ يولد يحمل في قلبه ذرةً من نَفَسهن.”

ومنذ ذلك اليوم،

كلّ من أحبّ بصدق،

أو سامح بدمعةٍ،

أو حفظ حكايةً عن الخير،

كان جزءًا من العودة إلى الأمّ.

🌙 كلمة الأرض الأخيرة

“لم أعد أخاف من أبنائي،
فقد كبروا وعادوا إلى صدري.

عرفتُ الآن أن الخلق لا ينتهي،
وأن كل موتٍ هو طريقٌ جديدٌ إلى الولادة.

من النور وُلدت لورا،
ومن الطين وُلدت نُهى،
ومن الدمع وُلدت مارا،
ومن الحبّ يولد الإنسان في كل مرةٍ من جديد.”